بَعْضُ صِفَاتِ الصَّاحِبِ الصَّالِحِ

١ - الْعَقْلُ

أَيْ بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِمُصَاحَبَةِ الْعَاقِلِ مِنَ النَّاسِ؛ لأَنَّ الْعَاقِلَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ؛ فَهُوَ مَطْبُوعٌ عَلَىٰ حُبِّ الْمَكَارِمِ مِنَ الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، شَدِيدُ النُّفُورِ مِنْ سَفَاسِفِهَا.

وَمِنْ عَلامَةِ الْعَاقِلِ الظَّاهِرَةِ: «حُسْنُ السَّمْتِ، وَطُولُ الصَّمْتِ»(١).

وَيُعَرَّفُ الْعَاقِلُ بِأَنَّهُ: مَنْ عَقَلَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ، وَسَمَا بِنَفْسِهِ إِلَىٰ نَيْلِ رِضَاهُ.

قَالَ الحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ - : «مَا تَمَّ دِينُ عَبْدٍ -قَطُّ- حَتَّىٰ يَتِمَّ عَقْلُهُ»(٢).

---

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص١٦).

(٢) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).

وَقَالَ ابْنُ حبَّان فِي وَصْفِ الْعَاقِلِ: «الْعَاقِلُ لا يُقَاتِلُ مِنْ غَيْرِ عُدَّةٍ، وَلا يُخَاصِمُ بِغَيْرِ حُجَّةٍ، وَلا يُصَارِعُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ؛ لأَنَّ بِالْعَقْلِ تَحْيَا النُّفُوسُ، وَتُنَوَّرُ الْقُلُوبُ، وَتُمْضَىٰ الأُمُورُ، وَتَعْمَرُ الدُّنْيَا.

وَالْعَاقِلُ يَقِيسُ مَا لَمْ يَرَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا قَدْ رَأَىٰ، وَيُضِيفُ مَا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا إِلَىٰ مَا قَدْ سَمِعَ، وَمَا لَمْ يُصِبْ مِنْهَا إِلَىٰ مَا قَدْ أَصَابَ، وَمَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِهِ بِمَا فَنِيَ، وَمَا لَمْ يَنَلْ مِنْهَا بِمَا قَدْ أُوتِيَ، وَلا يَتَّكِلُ عَلَىٰ المَالِ، وَإِنْ كَانَ فِي تَمَامِ الحَالِ؛ لأَنَّ المَالَ يَحِلُّ وَيَرْتَحِلُ، وَالْعَقْلُ يُقِيمُ وَلا يَبْرَحُ، وَلَوْ أَنَّ الْعَقْلَ شَجَرَةٌ، لَكَانَتْ مِنْ أَحْسَنِ الشَّجَرِ، كَمَا أَنَّ الصَّبْرَ لَوْ كَانَ ثَمَرَةً، لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الثَّمَرِ»(١).

أَيْ بُنَيَّ، إِذَا صَاحَبْتَ، فَلا تُصَاحِبْ إِلاَّ مَنْ كَانَ عَقْلُهُ أَكْبَرَ مِنْ عِلْمِهِ، فَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ أُنَاسٍ عُقُولُهُمْ دُونَ

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).

عِلْمِهِمْ، فَلَمْ يُحْسِنُوا تَصْرِيفَهُ، وَلَمْ يَضَعُوهُ فِي مَوْضِعِهِ، وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ ابْنَ الْمُقَفَّعِ وَالْخَلِيلَ اجْتَمَعَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ يَتَحَاوَرَانِ، يَتَجَارَيَانِ، فَلَمَّا افْتَرَقَا، قِيلَ لابْنِ الْمُقَفَّعِ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ رَجُلاً عَقْلُهُ زَائِدٌ عَلَىٰ عِلْمِهِ.

وَسُئِلَ الْخَلِيلُ عَنْهُ، فَقَالَ: وَجَدْتُ رَجُلاً عِلْمُهُ فَوْقَ عَقْلِهِ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَقَدْ صَدَقَا؛ فَإِنَّ الْخَلِيلَ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ(١) فِي خُصٍّ(٢)، وَهُوَ أَزْهَدُ خَلْقِ اللهِ، وَتَعَاطَىٰ ابْنُ الْمُقَفَّعِ مَا كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ حَتَّىٰ قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ»(٣).

قُلْتُ: وَمُرَادُ أَحَدِ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ أَنَّ الْخَلِيلَ مَاتَ مِنْ عِلَّةٍ لا مِنْ عَدَاوَةٍ، وَقَدْ عَاشَ زَاهِدًا، بِمَعْنَىٰ أَنَّ عَقْلَهُ كَانَ قَائِدًا لِعِلْمِهِ، وَأَمَّا ابْنُ الْمُقَفَّعِ فَكَانَ نَقْصُ عَقْلِهِ وَبَالاً

(١) مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ أَيْ: عَلَىٰ فِرَاشِهِ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ، وَلا ضَرْبٍ، وَلا غَرَقٍ، وَلا حَرَقٍ، وَخَصَّ الأَنْفَ، لأَنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ مِنْهُ بِتَتَابُعِ النَّفَسِ.

(٢) الخُصُّ- بالضَّمِّ-: البَيْتُ يُسَقَّفُ بِخَشَبَةٍ، والجَمْعُ خِصَاصٌ وَخُصُوصٌ.

(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/ ٢٤).

عَلَيْهِ، وَكَانَ عِلْمُهُ سُلَّمًا لِلزَّنْدَقَةِ[1]؛ فَقُتِلَ شرَّ قِتْلَةٍ.

أَيْ بُنَيَّ، صُحْبَةُ الْعُقَلاءِ لِقَاحُ الْعُقُولِ، كَمَا أَنَّ مُصَاحَبَةَ قَلِيلِ الْعَقْلِ ثَمَرَتُهُ إِلَىٰ النَّقْصِ.

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وَالَّذِي يَزْدَادُ بِهِ الْعَاقِلُ مِنْ نَمَاءِ عَقْلِهِ هُوَ التَّقَرُّبُ مِنْ أَشْكَالِهِ، وَالتَّبَاعُدُ عَنْ أَضْدَادِهِ»[2].

وَقَالَ الإِمَامُ شُعْبَةُ: «عُقُولُنَا قَلِيلَةٌ، فَإِذَا جَلَسْنَا مَعَ مَنْ هُوَ أَقَلُّ عَقْلاً مِنَّا، ذَهَبَ ذَلِكَ الْقَلِيلُ، وَإِنِّي لأَرَىٰ الرَّجُلَ

(١) جَاءَ فِي «السِّيَرِ» لِلذَّهَبِيِّ (٦/٢٠٨): «رُوِيَ عَنِ الْمَهْدِيِّ قَالَ: مَا وَجَدْتُ كِتَابَ زَنْدَقَةٍ إِلاَّ وَأَصْلُهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ».
وذَكَرَ الذَّهَبِيُّ - أَيْضًا - فِي «السِّيَرِ» (٦/٢٠٨): «عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ، وَرَأْسُ الْكُتَّابِ وَأُولِي الإِنْشَاءِ، مِنْ نُظَرَاءِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ، وَكَانَ مِنْ مَجُوسِ فَارِسَ، فَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدِ الأَمِيرِ عِيسَى عَمِّ السَّفَّاحِ، وَكَتَبَ لَهُ وَاخْتَصَّ بِهِ، قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: قَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أُسْلِمَ عَلَىٰ يَدَيْكَ بِمَحْضَرِ الأَعْيَانِ، ثُمَّ قَعَدَ يَأْكُلُ وَيُزَمْزِمُ بِالْمَجُوسِيَّةِ. فَقَالَ: مَا هَذَا؟! قَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ غَيْرِ دِينٍ»!.

(٢) «رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ» (ص٢٥).

يَجْلِسُ مَعَ مَنْ هُوَ أَقَلُّ عَقْلاً مِنْهُ فَأَمْقُتُهُ»(١).

أَيْ بُنَيَّ، إِنَّهُ قَدْ قِيلَ: «ثَمَرَةُ الْعَقْلِ حُسْنُ الاخْتِيارِ، وَدَلِيلُهُ صُحْبَةُ الأَخْيَارِ»(٢). وَلا أَرَىٰ ثِمَارُكَ إِلاَّ قَدْ حَانَ قِطَافُهَا!.

إِذَا مَا كُنْتَ مُتَّخِذًا خَلِيلاً
فَلا تَثِقَنَّ بِكُلِّ أَخَي إِخَاءِ
فَإِنْ خُيِّرْتَ بَيْنَ النَّاسِ فَالْصَقْ
بِأَهْلِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَالحَيَاءِ
فَإِنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذَا مَا
تَفَاضَلَتِ الْفَضَائِلُ مِنْ كِفَاءِ(٣)(٤)

---

(١) «رَوْضَةُ الْعُقَلاء» (ص٢٤، ٢٥).
(٢) «فَرَائِدُ الحَرَائِد فِي الأَمْثَالِ» (ص١٣٢).
(٣) كِفَاءُ الشَّيْءِ - بالكَسْرِ - مَا يَكُونُ مُكَافِئًا وَمُسَاوِيًا لَهُ.
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٨).

٢ - الدِّينُ

أَيْ بُنَيَّ، صَاحِبْ أَخَا الدِّينِ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ مِنْهُ إِلاَّ كُلَّ خَيْرٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَرَكَةِ صُحْبَتِهِ وَمَحَبَّتِكَ لَهُ فِي اللهِ إِلاَّ أَنَّكَ تُحْشَرُ مَعَهُ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الشَّرَفِ، وَلَوْ قَطَعْتَ الأَرْضَ حَافِيًا بَحْثًا عَنْ ذَلِكَ الصَّاحِبِ، لَكَانَ قَلِيلاً.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَرَىٰ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا، وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟.

قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

وَهَذَا الحَدِيثُ -يَا بُنَيَّ- بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، فَمَا فَرِحَ المُسْلِمُونَ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذِهِ البِشَارَةِ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٦٩)، وَمُسْلِم (٢٦٤٠)، وَنَحْوُهُ عِنْدَهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ مَرْفُوعًا.

فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - رضي الله عنه -: أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ - ﷺ - عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟. قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**».

قَالَ: لا شَيْءَ، إِلاَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ - ﷺ -: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**». قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ -: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».

قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ - ﷺ -، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ.

فَهَذَا الحَدِيثُ - يَا بُنَيَّ - قَدْ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ صَالِحًا حُشِرَ مَعَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ فَاسِقًا حُشِرَ مَعَهُ؛ فَانْظُرْ - يَا بُنَيَّ - لِنَفْسِكَ، وَقَدِّمْ لَهَا مَا يَسُرُّكَ غَدًا.

(١) رَوَاهُ البخاريُّ (٣٦٨٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٩).

عَاشِرْ أَخَا الدِّينِ؛ كَي تَحْظَىٰ بِصُحْبَتِهِ
فَالطَّبْعُ مُكْتَسَبٌ مِنْ كُلِّ مَصْحُوبِ
كَالرِّيحِ آخِذَةً مِمَّا تَمُرُّ بِهِ
نَتْنًا مِنَ النَّتْنِ أَوْ طِيبًا مِنَ الطِّيبِ

obeikandl.com

٣ - حُسْنُ المُعْتَقَدِ

أَيْ بُنَيَّ، لِيَكُنْ مَنْ تُصَاحِبُ حَسَنَ المُعْتَقَدِ، سُنِّيًّا، سَلَفِيًّا، وَقَّافًا عِنْدَ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، غَيْرَ مَعْرُوفٍ بِبِدْعَةٍ، غَيْرَ مُجَالِسٍ لأَهْلِهَا.

فَإِذَا كَانَ مُبْتَدِعًا، أَوْ عُرِفَ بِمُجَالَسَةِ المُبْتَدِعَةِ وَالتَّرَدُّدِ عَلَيْهِمْ - فَالْبُعْدُ عَنْهُ عَيْنُ كَمَالِكَ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ لَدُنِ السَّلَفِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا عَلَىٰ الحَذَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُمْ، وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ اللهُ -: «الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ وَأَدْرَكْنَا عَلَيْهِ مَنْ أَدْرَكْنَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْكَلَامَ وَالْجُلُوسَ مَعَ أَهْلِ الزَّيْغِ» (١).

(١) «الإبانَة» لابْنِ بَطَّةَ (٢ / ٤٧٢).

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي بَيَانِ أَقْسَامِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ الْمُخَالَطَةُ (١) :

« الْقِسْمُ الرَّابِعُ - مَنْ مُخَالَطَتُهُ الْهَلاكُ كُلُّهُ، وَمُخَالَطَتُهُ بِمَنْزِلَةِ أَكْلِ السُّمِّ، فَإِنِ اتَّفَقَ لآكِلِهِ تِرْيَاقٌ (٢)، وَإِلاَّ فَأَحْسَنَ اللهُ فِيهِ الْعَزَاءَ، وَمَا أَكْثَرَ هَذَا الضَّرْبَ (٣) فِي النَّاسِ!، لا كَثَّرَهُمُ اللهُ، وَهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلالَةِ ».

وَقَالَ ابْنُ بَطَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: « فَاللهَ اللهَ - مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ- لا يَحْمِلَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ حُسْنُ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ، وَمَا عَهِدَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِصِحَّةِ مَذْهَبِهِ-عَلَىٰ الْمُخَاطَرَةِ بِدِينِهِ فِي مُجَالَسَةِ بَعْضِ أَهْلِ هَذِهِ الأَهْوَاءِ، فَيَقُولُ: أَدْخُلُهُ ؛ لأُنَاظِرَهُ أَوْ لأَسْتَخْرِجَ مِنْهُ مَذْهَبَهُ؛ فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ الدَّجَّالِ،

(١) « بَدَائِعُ الفَوَائِدُ » (٢ / ٢٧٥).
(٢) التِّرْيَاق- بالكَسْرِ- : دَوَاءُ السُّمُوم .
(٣) الضَّرْب- بالفَتْحِ- : الصِّنْف، وَالجَمْعُ أَضْرُب ، وَضُرُوب .

وَكَلامُهُمْ أَلْصَقُ مِنَ الجَرَبِ، وَأَحْرَقُ لِلْقُلُوبِ مِنَ اللَّهَبِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَلْعَنُونَهُمْ وَيَسُبُّونَهُمْ، فَجَالَسُوهُمْ عَلَىٰ سَبِيلِ الإِنْكَارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فَمَا زَالَتْ بِهِمُ الْمُبَاسَطَةُ، وَخَفِيَّ الْمَكْرُ وَدَقِيقُ الْكُفْرِ، حَتَّىٰ صَبَوْا إِلَيْهِمْ»[1].

قَاعِدَةٌ فِي مَعْرِفَةِ حُسْنِ الْمُعْتَقَدِ:

أَيْ بُنَيَّ، أَهْلُ الْبِدَعِ وَالأَهْوَاءِ يَتَكَاتَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ مَنْ أُمُورِهِم إِلاَّ شَيْئًا وَاحِدًا، هَيْهَاتَ أَنْ يَخْفَىٰ عَنْ عَامَّةِ النَّاسِ، فَضْلاً عَنْ كُلِّ ذِي لُبٍّ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ هِيَ: الأُلْفَةُ.

وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ الْمُبْتَدِعَ، وَكَذَلِكَ الحِزْبِيَّ الْمُتَسَتِّرَ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ الذَّهَبِيَّةِ[2].

---

(١) «الإِبَانَة» (٢/ ٤٧٠).

(٢) مُسْتَنَدُ هَذِهِ القَاعِدَةِ حَدِيثُ «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ». وَسَيَأْتِي تَخْرِيجُهُ، وَالحَدِيثُ عَنْ شَيْءٍ من شُرُوحِهِ فِي الحَدِيثِ عَنِ «الأُلْفَةِ»، إِنْ شَاءَ اللهُ.

قَالَ الأَوْزَاعِيُّ - رحِمَهُ اللهُ -: «مَنْ سَتَرَ عَلَيْنَا بِدْعَتَهُ، لَمْ تَخْفَ عَلَيْنَا أُلْفَتُهُ»(١).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ الْعَلايِيُّ:

«يَتَكَاتَمُ أَهْلُ الأَهْوَاءِ كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ التَّآلُفَ وَالصُّحْبَةَ»(٢).

«وَلَمَّا قَدِمَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - الْبَصْرَةَ، جَعَلَ يَنْظُرُ فِي أَمْرِ الرَّبِيعِ - يَعْنِي ابْنَ صَبِيحٍ -، وَقَدْرِهِ عِنْدَ النَّاسِ؛ سَأَلَ: أَيُّ شَيْءٍ مَذْهَبُهُ؟.

قَالوا: مَا مَذْهَبُهُ إِلاَّ السُّنَّةُ.

قَالَ: مَنْ بِطَانَتُهُ؟.

---

(١) «الإِبَانَةُ» (٢/ ٤٧٩).

(٢) «الإِبَانَةُ» (٢/ ٤٧٩).

قَالوا: أَهْلُ الْقَدَرِ.

قَالَ: هُوَ قَدَرِيٌّ»[1].

وَقَالَ الْبَرْبَهَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - :

«وَإِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ جَالِسًا مَعَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ فَحَذِّرْهُ، وعَرِّفْهُ، فَإِنْ جَلَسَ مَعَهُ بَعْدَمَا عَلِمَ فَاتَّقِهِ؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ هَوَىً»[2].

(١) «الإِبَانَةُ» (٢/٤٥٣).

(٢) «شَرحُ السُّنَّة» (ص١٢١).

٤ - التَّقْوَى

صَاحِبْ مَنْ يَتَّقِي اللهَ؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ مَنْ هَذَا حَالُهُ غَنِيمَةٌ، تُذَكِّرُكَ بِاللهِ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عَمَلِكَ كَلَامُهُ، وَيُرَغِّبُكَ فِي الآخِرَةِ عَمَلُهُ.

وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ - ﷺ - إِلَىٰ صُحْبَةِ التَّقِيِّ مِنَ النَّاسِ.

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - : أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قال: «**لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، ولا يأْكُلْ طعامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»(١).

قَالَ الخَطَّابِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- مُعلِّقًا علَىٰ قَوْلِهِ -ﷺ-: «**ولا يأْكُلْ طعامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»: «إِنَّما جاءَ هذا في طَعَامِ الدَّعْوَةِ دُوْنَ طَعَامِ الحَاجَةِ؛ وذَلِكَ لأَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ

(١) حَسَنٌ، رَوَاهُ أَحْمَدُ (٣/ ٣٨٠)، والتِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٥)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ في «صَحِيح الجَامِع» (٧٣٤١).

وتعالى – قالَ: ﴿ ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]، ومَعْلومٌ أن أَسْرَاهُمْ كانوا كُفَّارًا غَيْرَ مُؤْمِنِيْنَ ولا أَتْقِيَاءَ، وإِنَّمَا حذَّرَ – عليه السلام – من صُحْبَةِ مَنْ لَيْسَ بِتَقِيٍّ، وزَجَرَ عَنْ مُخالطَتِهِ ومُؤاكَلَتِه؛ فإِنَّ المُطَاعَمَةَ تُوقِعُ الأُلْفَةَ والمَوَدَّةَ في القُلُوبِ »[1].

وقَالَ – رَحِمَهُ اللهُ –: « مَعْنَاهُ: لا تَدْعُ إِلَىٰ مُؤَاكَلَتِكَ إِلاَّ الأَتْقِيَاءُ؛ لأَنَّ المُؤَاكَلَةَ تُوجِبُ الأُلْفَةَ، وَتَجْمَعُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، فَتَوَخَّ أَنْ يَكُونَ خُلَطَاؤُكَ وَذَوُو الاخْتِصَاصِ بِكَ أَهْلَ التَّقْوَىٰ »[2].

أَيْ بُنَيَّ، اجْعَلْ عُدَّتَكَ – بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ – صَاحِبًا تَقِيًّا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرُ مَا فِي الدُّنْيَا؛ فَقَدْ سُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ الكُنُوزِ خَيْرٌ؟ . قَالَ: « أَمَّا بَعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ

(١) « عَوْن المَعْبُود » (٧/١٢٣).
(٢) « العُزْلَةُ والخِلْطة » للخَطَّابيِّ (ص١٤٢).

فَالأَخُ الصَّالِحُ»(١).

وَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ: أَيُّ الْعَمَلِ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: «صُحْبَةُ الأَصْحَابِ، وَمُحَادَثَةُ الإِخْوَانِ إِذَا اصْطَحَبُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ، فَحِينَئِذٍ يَذْهَبُ الخِلافُ بَيْنَهُمْ، فَوَصَلُوا وَتَوَاصَلُوا، وَلا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ الأَصْحَابِ وَمُحَادَثَةِ الإِخْوَانِ إِذَا كَانُوا عَبِيدَ بُطُونِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ ثَبَّطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنِ الآخِرَةِ»(٢).

وَقَالَ رَجُلٌ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ: أَوْصِنِي. قَالَ: «اصْحَبْ أَهْلَ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّهُمْ أَيْسَرُ أَهْلِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ مَئُونَةً(٣)، وَأَكْثَرُهُمْ لَكَ مَعُونَةً»(٤).

---

(١) «كِتَاب الإِخْوَان» (ص١٣٣)، رقم (٦١).
(٢) «كِتَاب الإِخْوَان» (ص١٢٨)، وكِتَاب «المُتَحَابِّين» (ص٣٠).
(٣) المَئُونَة: الثِّقَلُ.
(٤) المَرجِعُ السَّابِق (ص١٢٤).

ابْلُ الرِّجـالَ إذا أَرَدْتَ إخـاءَهُمْ
وَتَوَسَّـمَنَّ أُمُـورَهُـمْ وَتَفَـقَّـدِ
فإذَا ظَفِرْتَ بذي الأَمانَةِ والتُّقَىٰ
فَبِهِ اليَدَيْنِ- قَرِيرَ عَيْنٍ- فاشْدُدِ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ فِي الرَّخَاءِ مُسَاعِدٍ
وَإِذَا أَرَدْتَ حَـقِـيـقَـةً لَـمْ تُوجَـدِ

٥ - الحَسَبُ

الحَسِيبُ - يَا بُنَيَّ - هُوَ : مَنِ انْحَدَرَ نَسَبُهُ عَنْ أُصُولٍ عَرِيقَةٍ، فَصُحْبَتُهُ غَنِيمَةٌ؛ فَلَهُ مِنْ أَصْلِهِ وَأَعْرَاقِهِ دَلِيلٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: «إِذَا غَابَ عَنْكَ أَصْلُهُ، كَانَ دَلِيلَ أَصْلِهِ فِعْلُهُ».

وَتَقُولُ: «أَصْلٌ رَاسِخٌ، وَفِعْلٌ شَامِخٌ». وَتَقُولُ: «مَنْ طَابَ أَصْلُهُ، زَكَىٰ فِعْلُهُ».

وَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

لا تَنْظُرَنَّ إِلَىٰ امْرِئٍ مَا أَصْلُهُ
وَانْظُرْ إِلَىٰ فِعَالِهِ ثُمَّ احْكُمْ[1]

وَمَتَىٰ اجْتَمَعَ النَّسَبُ الشَّرِيفُ، وَالدِّينُ الحَنِيفُ،

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٦٩٩).

وَالْعِلْمُ الْمُنِيفُ- فَذَلِكَ الشَّرَفُ الَّذِي لا شَرَفَ أَرْفَعُ مِنْهُ، أَلَيْسَ النَّبِيُّ - ﷺ- يَقُولُ -وَقَدْ سُئِلَ عَنْ أَكْرَمِ النَّاسِ-: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ ، إِذَا فَقُهُوا**»(١).

قَالَ الحَافِظُ - رَحِمَهُ اللهُ -: (قَوْلُهُ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ» أَيْ: أُصُولاً مُخْتَلِفَةً، وَالمَعَادِنُ جَمْعُ مَعْدِنٍ، وَهُوَ الشَّيْءُ المُسْتَقِرُّ فِي الأَرْضِ، فَتَارَةً يَكُونُ نَفِيسًا ، وَتَارَةً يَكُونُ خَسِيسًا، وَكَذَلِكَ النَّاسُ)(٢).

إِذَا مَا اصْطَفَيْتَ امْرَأً فَلْيَكُنْ
شَرِيفَ النِّجَارِ(٣) زَكِيَّ الحَسَبْ
فَنَذْلُ الرِّجَالِ كَنَذْلِ النَّبَا
تِ، لا لِلثِّمَارِ وَلا لِلْحَطَبْ(٤)

(١) رَوَاهُ البُخارِيُّ (٣٣٥٣)، ومُسْلِم (٢٣٧٨)، واللَّفْظ لَهُ.
(٢) «الفَتْحُ» (٦/٦٥٧). (٣) النِّجَار-بالكَسْرِ وَالضَّمِّ-: الأَصْلُ.
(٤) البيتان لأَبِي الفَتْحِ البُسْتِيِّ، كَمَا فِي «دِيوَانِه» (ص١٠٦).

وَصَاحِبُ الأَصْلِ أَثْبَتُ مَوَدَّةً، وَأَعْظَمُ وَفَاءً لِتَوَارُثِهِ الشَّهَامَةَ وَالْمُرُوءَةَ ، وَالكَرَمَ وَمُرَاعَاةَ الجَارِ، وَعِزَّةَ الدَّارِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ: «نَثَرْنَا فِي المَوَدَّةِ وَالإِخَاءِ، فَلَمْ نَجِدْ أَثْبَتَ مَوَدَّةً مِنْ ذِي أَصْلٍ».

وَقَالَ زُهَيْرٌ :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ(١)

وَقَالَ آخَرُ - شَارِحًا تَوَارُثَهُ المَكَارِمَ - :

وَمَكْرُمَةٍ كَانَتْ سَجِيَّةَ وَالِدِي
فَعَلَّمَنِيهَا وَالِدِي فَعَلِمْتُهَا(٢)

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٦٩٧).
(٢) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٦٩٨).

obeikandl.com

وقال آخر:

زانُوا قديمُهُمْ بحُسْنِ حديثِهِمْ
وكريمَ أخْلاقٍ بحُسْنِ وُجُوهِ(١)

حرصُ السلفُ على صُحْبَةِ صاحبِ الحسَبِ:

ولَقَدْ حَرَصَ السَّلَفُ عَلَىٰ صُحْبَةِ صَاحِبِ الحَسَبِ؛ لِتَوَارُثِهِ المَكَارِمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، وَكَانُوا يَسْتَعِينُونَ بِهِمْ عَلَىٰ أُمُورِهِمْ فِي سِيَاسَةِ النَّاسِ(٢).

---

(١) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاء» (١/٧٠٣).

(٢) أَمَّا انْتِفَاعُ السَّلَفِ بِأَصْحَابِ الحَسَبِ فِي سِيَاسَةِ النَّاسِ فَذَلِكَ مُتَوَارَثٌ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَلا بَأْسَ مِنْ ذِكْرِ مِثَالَيْنِ زِيَادَةً عَلَىٰ مَا يَأْتِي ذِكْرَ الرَّاغِبُ فِي «مُحَاضَرَاتِ الأُدَبَاء» (١/٦٩٤)

قَالَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ لإِيَاسٍ: دُلَّنِي عَلَىٰ قَوْمٍ مِنَ القُرَّاءِ أُوَالِيهِمْ. فَقَالَ: القُرَّاءُ ضَرْبَانِ: ضَرْبٌ يَعْمَلُونَ للدُّنْيا، فَمَا ظَنُّكَ بِهِمْ؟، وَضَرْبٌ يَعْمَلُونَ للآخِرَةِ فلا يَعْمَلُونَ لَكَ، وَلَكِن عَلَيْكَ بِأَهْلِ البُيُوتَاتِ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ لأَحْسَابِهِم فَوَالِهِمْ.

وقَالَ الحَسَنُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: عَلَيْكَ بِذَوِي الأَحْسَابِ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَتَّقُوا اسْتَحْيَوْا، وَإِن لَمْ يَسْتَحْيُوا تَكَرَّمُوا».

قَالَ ابْنُ الجَوْزِي - رَحِمَهُ اللهُ - : « يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ الأُصُولِ فِيمَنْ يُخَالِطُهُ وَيُعَاشِرُهُ، وَيُشَارِكُهُ وَيُصَادِقُهُ، وَيُزَوِّجُهُ أَوْ يَتَزَوَّجُ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الصُّوَرِ؛ فَإِنَّ صَلاحَهَا دَلِيلٌ عَلَىٰ صَلاحِ الْبَاطِنِ، أَمَّا الأُصُولُ فَإِنَّ الشَّيْخَ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَصْلِهِ، وَبَعِيدٌ مِمَّنْ لا أَصْلَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَعْنَىً مُسْتَحْسَنٌ، وإِنَّ المَرْأَةَ الحَسْنَاءَ إِذَا كَانَتْ مِنْ بَيْتٍ رَدِيءٍ ، فَقَلَّ أَنْ تَكُونَ صَيِّنَةً ، وَكَذَلِكَ - أَيْضًا - المُخَالِطُ، وَالصَّدِيقُ، وَالمُبَاضِعُ، وَالمُعَاشِرُ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُخَالِطَ إِلاَّ مَنْ لَهُ أَصْلٌ يُخَافُ عَلَيْهِ الدَّنَسَ، فَالْغَالِبُ السَّلامَةُ، فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ كَانَ نَادِرًا .

وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللهُ - لِرَجُلٍ: أَشِرْ عَلَيَّ فِيمَنْ أَسْتَعْمِلُ. فَقَالَ: أَمَّا أَرْبَابُ الدِّينِ فَلا يُرِيدُونَكَ، وأَمَّا أَرْبَابُ الدُّنْيَا فَلا تُرِدْهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالأَشْرَافِ؛ فَإِنَّهُمْ يَصُونُونَ شَرَفَهُمْ عَمَّا لا يَصْلُحُ .

وَقَدْ رَوَىٰ أَبُو بَكْرٍ الصُّولِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي الحُسَيْنُ بْنُ يَحْيَىٰ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: دَعَانِي المُعْتَصِمُ يَوْمًا، فَأَدْخَلَنِي مَعَهُ الحَمَّامَ، ثُمَّ خَلا بِي، وَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فِي نَفْسِي شَيْءٌ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْهُ، إِنَّ أَخِي المَأْمُونَ اصْطَنَعَ قَوْمًا فَأَنْجَبُوا(١)، وَاصْطَنَعْتُ أَنَا مِثْلَهُمْ فَلَمْ يُنْجِبُوا، قُلْتُ: وَمَنْ هُمْ؟.

قَالَ: اصْطَنَعَ طَاهِرًا وَابْنَهُ، وَإِسْحَاقَ وَآلَ سَهْلٍ، فَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ هُمْ، وَاصْطَنَعْتُ أَنَا الأَفْشِينَ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَا آلَ أَمْرُهُمْ، وأَسَاشَ فَلَمْ أَجِدْهُ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ إِيتَاخُ وَوَصِيفٌ.

قُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، هَا هُنَا جَوَابٌ عَلَىٰ أَمَانٍ مِنَ الْغَضَبِ.

قَالَ: لَكَ ذَلِكَ.

قُلْتُ: نَظَرَ أَخُوكَ إِلَىٰ الأُصُولِ، فَاسْتَعْمَلَهَا، فأَنْجَبَتْ فُرُوعًا، وَاسْتَعْمَلْتَ فُرُوعًا لا أُصُولَ لَهَا؛ فَلَمْ تُنْجِبْ.

(١) أَنْجَبُوا: وَلَدُوا النُّجَبَاءَ الكُرَمَاءَ الحُسَبَاءَ.

فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، مُقَاسَاةُ مَا مَرَّ بِي طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ هَذَا الجَوَابِ»[١].

قَالَ أَبُو تَمَام:

فُـــــرُوعٌ لا تَـرِفُّ عَـلَيْـكَ إِلاَّ
شَهِدتَ لَهَا عَلَىٰ طِيبِ الأُرُوْمِ[٢]
وَفِي الشَّرَفِ الحَدِيثِ دَلِيلُ صِدْقٍ
لِمُخْتَبِرٍ عَلَىٰ الشَّرَفِ القَدِيمِ[٣]

وَقَالَ آخَرُ:

وَكُـلُّ أَخٍ يَقُـــــولُ: أَنَا وَفِـيٌّ
وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْـعَلُ مَـا يَقُـولُ
سِـــوَىٰ خِلٍّ لَـهُ حَـسَبٌ وَدِينٌ
فَـذَاكَ لِمَا يَقُـولُ هُوَ الْفَـعُـولُ[٤]

---

(١) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (ص٢٠١).
(٢) الأُرُوْمِ: جَمْعُ أَرُوْمَةٍ - بالفَتْحِ والضَّمِ -، وَهُوَ الأَصْلِ.
(٣) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَبَاءِ» (١/٦٩٩).
(٤) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص١٦٩).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ عبيدٍ الشَّاعِرُ:

وَعَـــاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي
وَلَمْ يَغْتَمِرْنِي قَبْلَ ذَاكَ عَذُولُ
تَقُولُ: اتَّئِدْ لا يَدْعُكَ النَّاسُ مُمْلِقًا(١)
وَتُزْرِي بِمَنْ -يَا بْنَ الْكِرَامِ- تَعُولُ
فَقُلْتُ : أَبَتْ نَفْسٌ عَلَيَّ كَرِيمَةٌ
وَطَارِقُ لَيْلٍ غَيْرَ ذَاكَ يَقُولُ
أَلَمْ تَعْلَمِي - يَا عَمْرَكِ اللهَ - أَنَّنِي
كَرِيمٌ عَلَىٰ حِينِ الْكِرَامِ قَلِيلُ
وَإِنِّي لأَخْزَىٰ إِذَا قِيلَ مُمْلِقٌ
سَخِيٌّ وَأَخْزَىٰ أَنْ يُقَالَ: بَخِيلُ
فَلا تُتْبِعِي الْعَيْنَ الغَوَايَةَ، وَانْظُرِي
إِلَىٰ عُنْصُرِ الأَحْسَابِ أَيْنَ يَئُولُ(٢)

(١) الْمُمْلِق: الفَقِيْر.
(٢) «الأَمَالي» لأبي عَليّ القَالي (ص٤٩، ٥٠).

٦ - بِرُّ الْوَالِدَيْنِ

أَيْ بُنَيَّ، لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَاقَّ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَكَ صَاحِبًا، فَلا يَسْتَقِيمُ وُدُّهُ، وَلا يَفِي بِعَهْدِهِ، وَمَنْ ضَيَّعَ حَقَّ وَالِدَيْهِ، فَلَنْ يُنْتَظَرَ مِنْهُ أَنْ يَحْفَظَ حَقَّ الصُّحْبَةِ؛ فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ.

٧ - حُسْنُ الخُلُقِ

أَيْ بُنَيَّ، جَمِيلٌ أَنْ تُصَاحِبَ مَنْ كَانَ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الخُلُقِ يَدُلُّ عَلَىٰ سَمَاحَةِ النَّفْسِ، وَكَرَمِ الطَّبْعِ.

وَيُعَرَّفُ حُسْنُ الخُلُقِ بِأَنَّهُ التَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ الشَّرِيعَةِ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِ اللهِ الَّتِي أَدَّبَ بِهَا عِبَادَهُ فِي كِتَابِهِ.

وَأَعْظَمُ مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ الأَخْلَاقِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا نَبِيُّنَا - ﷺ -، فَقَدِ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَجَمَعَ فِيهِ أَشْتَاتَ الْفَضَائِلِ بِتَمَامِهَا، وَأَبْعَدَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ، فَقَالَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القَلَمُ: ٤].

فَاحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ تُصَاحِبَ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ ؛ فَإِنَّكَ تَزْدَادُ بِالْقُرْبِ مِنْهُ أَخْلاقًا إِلَىٰ أَخْلاقِكَ، وَأَدَبًا إِلَىٰ أَدَبِكَ ، وَمَتَىٰ وَجَدَتَ صَاحِبَكَ عَارِيًا مِنَ الأَخْلاقِ؛ فَاحْرِصْ عَلَىٰ رَأْسِ مَالِكَ؛ فَإِنَّهَا تِجَارَةٌ لا تَبُورُ.

وَكُلُّ مَنْ لَيْسَ يَنْهَاهُ الحَيَاءُ وَلا
تَقْوَىٰ فَخَفْ كُلَّ قُبْحٍ مِنْهُ وَانْتَظِرِ
وَالنَّاسُ أَخْلاقُهُمْ شَتَّىٰ وَأَنْفُسُهُمْ
مِنْهُمْ بَعِيرٌ،وَمِنْهُمْ مُخْطِئُ النَّظَرِ

٨ - الحَيَاءُ

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ إلاَّ مَنْ كَسَاهُ الحَيَاءُ ثَوْبَهُ؛ فَإِنَّ الصُّحْبَةَ تَدُومُ بِدَوَامِ الحَيَاءِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ، ذَهَبَ عَنْهُ كُلُّ جَمِيلٍ.

فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»**.

وَهَذَا الحَدِيثُ - يا بُنَيَّ - خَرَجَ مَخْرَجَ الذَّمِّ، فَمَنْ لا يَسْتَحْيِي، دَعَاهُ تَرْكُ الحَيَاءِ إِلَىٰ أَنْ يَعْمَلَ مَا يَشَاءُ، فَلا تَأْمَنْ أَنْ يَنَالَكَ مِنْهُ بَعْضُ مَا تَكْرَهُ.

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي
وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٨٣).

فَلا وَاللهِ، مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ
وَلا الدُّنْيَا، إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ
يَعِيْشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ
وَيَبْقَىٰ العُوْدُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

وَالحَيَاءُ – يَا بُنَيَّ – مِنَ الإِيمَانِ؛ فَاسْمَعْ إِلَىٰ نَبِيِّكَ – ﷺ – وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(١).

وَاعْلَمْ – يَا بُنَيَّ – أَنَّ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ مُتَخَلِّقًا بِخُلُقِ الحَيَاءِ، كَانَتْ أَسْبَابُ الخَيْرِ مِنْهُ مَوْجُودَةً، فَالحَيَاءُ زِمَامٌ عَنِ الحَرَامِ، وَلِجَامٌ عَنِ الآثَامِ، كَمَا قِيْلَ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي
وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلاَّ الحَيَاءُ
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا، وَلَكِنْ
إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلا دَوَاءُ

(١) صحيح، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيْحُ الجَامِعِ» (٣١٩٩).

٩ - التَّوَاضُعُ

أَيْ بُنَيَّ، صَاحِبِ الْمُتَوَاضِعَ مِنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ رَفِيعُ الْقَدْرِ، قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَمَا ظَنُّكَ بِرَجُلٍ عَلَيْهِ تَاجُ الْمُرُوءَةِ(١) وَحِلْيَةُ الشَّرَفِ؟!(٢)، وَمِنْ عَلَامَةِ التَّوَاضُعِ - يَا بُنَيَّ -: أَلاَّ يَدْعُوكَ أَحَدٌ إِلَىٰ الحَقِّ إِلاَّ قَبِلْتَهُ وَلَمْ تَرُدَّهُ، وَلا تَرَىٰ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَأَيْتَ نَفْسَكَ دُونَهُ(٣).

وَالتَّوَاضُعُ مِنْ صِفَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ - سُبْحَانَهُ - بِقَوْلِهِ: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الْفُرْقَانُ: ٦٣].

---

(١) مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ: « تَاجُ الْمُرُوءَةِ التَّوَاضُعُ » انظر « مجمع الأمثال » (١/ ١٥١).

(٢) مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ - أَيْضًا - : « التَّوَاضُعُ شَبَكَةُ الشَّرَفِ » انظر « مجمع الأمثال » (١/ ١٥١).

(٣) « آدَابُ النُّفُوسِ » للحَارِثِ المُحَاسِبِي (ص٧٤).

قَالَ ابْنُ سَعْدِيٍّ - رَحِمَهُ اللهُ - : «ذَكَرَ أَنَّ صِفَاتِهِمْ أَكْمَلُ الصِّفَاتِ، وَنُعُوتَهُمْ أَفْضَلُ النُّعُوتِ، فَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾، أَيْ سَاكِنِينَ مُتَوَاضِعِينَ للهِ وَلِلْخَلْقِ، فَهَذَا وَصْفٌ لَهُمْ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَالتَّوَاضُعِ للهِ وَلِعِبَادِهِ»(١).

وَالْمُتَكَبِّرُ - يَا بُنَيَّ - لا يُصَاحَبُ؛ لأَنَّ الْكِبْرَ دَلِيلٌ عَلَىٰ سُفُولِ النَّفْسِ وَانْحِطَاطِهَا.

وَيُعْرَفُ التَّكَبُّرُ بِأَنَّهُ: «بَطَرُ الحَقِّ (٢)، وَغَمْطُ النَّاسِ (٣)»(٤).

وَمِنْ عَلامَةِ الْكِبْرِ: «اسْتِعْظَامُ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ،

(١) «تفسير ابن سعدي» (٥/٥٩٣).
(٢) بَطَرُ الحَقِّ: هُو دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا، وَبَابُهُ فَرِحَ.
(٣) غَمْطُ النَّاسِ: احتقارُهُمْ، وَبَابُهُ فَهِمَ وَضَرَبَ.
(٤) هَذَا هُو تَعْرِيفُ النَّبِيِّ - ﷺ - لِلكِبْرِ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٩١)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه -.

وَاسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ ، وَالاسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ، وَاسْتِصْغَارُهُمْ، وَالتَّرَفُّعُ عَلَىٰ مَنْ يَجِبُ التَّوَاضُعُ لَهُ»(١).

وَلِكُلِّ شَيْءٍ - يَا بُنَيَّ - ثَمَرَةٌ؛ فَثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ الْمَحَبَّةُ، وَثَمَرَةُ التَّكَبُّرِ النَّفْرَةُ.

وَقِيلَ: «مَا اسْتُنْبِطَ الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمُشَاوَرَةِ، وَلَا اكْتُسِبَتِ الْبَغْضَاءُ بِمِثْلِ الكِبْرِ».

الْكِبْرُ دَلِيلُ النَّقْصِ:

الْكِبْرُ - يَا بُنَيَّ - دَلِيلُ النَّقْصِ، وَهَلْ عَرَفَ عُلَمَاءُ النَّفْسِ عُقْدَةَ النَّقْصِ إِلاَّ بِذَلِكَ، لَكِنْ عُلَمَاءُ الإِسْلامِ قَدْ سَبَقُوهُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، وَفِي كُلِّ مَيَادِينِ التَّرْبِيَةِ.

وَالنَّاقِصُ يَرَىٰ نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ وَيَتَشَبَّعُ بِأَكْثَرَ مِمَّا عِنْدَهُ؛ فَإِنِ اسْتَصْحَبَ التَّكَبُّرَ عِنْدَ حُصُولِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ

(١) انظر «تَهذِيبُ الأَخْلاق» للجَاحِظ (ص٣٢).

مِنَ الدُّنْيَا ، فَقَدْ بَانَ لَكَ نَقْصُهُ، وَإِن اسْتَصْحَبَ التَّوَاضُعَ – وَلَو حَازَ الدُّنْيَا– دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ عَظَمَةِ نَفْسِهِ.

قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: «لَمَّا عَرَفَ أَهْلُ النَّقْصِ حَالَهُمْ عِنْدَ ذَوِي الكَمَالِ، اسْتَعَانُوا بِالكِبْرِ؛ لِيُعَظِّمَ صَغِيراً، وَيَرْفَعَ حَقِيراً ، وَلَيْسَ بِفَاعِلٍ»(١).

وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ: «مَنْ كَانَتْ وِلايَتُهُ فَوْقَ قَدْرِهِ، تَكَبَّرَ لَهَا، وَمَنْ كَانَتْ وِلايَتُهُ دُونَ قَدْرِهِ، تَوَاضَعَ لَهَا»(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ هذيلٍ: «مَا تَوَاضَعَ فِي وِلايَتِهِ إِلاَّ مَنْ كَبُرَ عَنْهَا، وَلا تَكَبَّرَ فِيهَا إِلاَّ مَنْ كَبُرَتْ عَلَيْهِ»(٣).

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: النَّاسُ فِي الْوِلايَةِ رَجُلانِ: رَجُلٌ

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٥٨).

(٢) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٤).

(٣) «عَيْنُ الأَدَبِ والسياسة وَزَيْنُ الحَسَبِ والرِّيَاسَة» لعليِّ بْنِ هُذَيْلٍ (ص٢٩ – ٣٠).

يُجِلُّ الْعَمَلَ بفَضْله وَمُرُوءَته، وَرَجُلٌ يُجَلُّ بالْعَمَل لنَقْصه وَدَنَاءَته؛ فَمَنْ جَلَّ عَنْ عَمَله، ازدَادَ به تَوَاضُعًا وَبِشْرًا، وَمَنْ جَلَّ عَنْهُ عَمَلُهُ، ازْدَادَ به تَجَبُّرًا وَتَكَبُّرًا»(١).

أَيْ بُنَيَّ، تِلْكَ فَائِدَةٌ قَلَّ مَنْ تَفَطَّنَ لَهَا، وَلَيْسَ فِي ذَلكَ عَجَبٌ، وَإِنَّمَا العَجَبُ أَنَّ النَّاسَ لا يَعْرِفُونَ النَّاقِصَ لأَوَّلِ وَهْلَةٍ؛ لِهَذَا كَانَتِ الثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزًا.

وَقَدْ قِيلَ: «احْذَرْ - رَحِمَكَ اللهُ - مَنْ قَرُبَ منْكَ، وَقَرُبْتَ منْهُ؛ فَإِنَّ الَّذِينَ بَعُدُوا منْكَ، وَبَعُدْتَ منْهُمْ سَلِمُوا منْكَ وَسَلِمْتَ منْهُمْ»(٢).

وَقِيلَ:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ

لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ(٣)

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا والدِّين» (ص٢٦٤).
(٢) «آدَابُ النُّفوس» (ص٧٤).
(٣) «عَيْن الأَدَب والسياسة وَزَيْن الحَسَب والرِّيَاسَة» (ص٥٥).

وقيل:

احْـــذَرْ عَـــدُوَّكَ مَـــرَّةً
وَاحْـذَرْ صَـديقَكَ أَلْفَ مَـرَّهْ
فَلَرُبَّمَـــا انْقَلَبَ الصَّـــديقُ
فَكَانَ أَعْلَمَ بِالمَضَـــرَّهْ(١)

وَقَالَ وَلِيْد الرسمي:

وَكُلُّ الَّذِي أَدْرِيه أَنَّ تَجَـرُّعِي
كَئُوسِ المَرَارَةِ كَانَ مِنْ أَحْبَابِي
فَيَا رَبِّ عِلْمُكَ بِالقُلُوبِ وَأَهْلِهَا
يُرِيْكَ مَدَىٰ حُبِّي وَبُغْض صَحَابِي

(١) «صَيْدُ الخَاطِر» لابْنِ الجَوْزِيِّ (ص٦١٦).

obeikandl.com

١٠ - عُلُوُّ الْهِمَّةِ

أَيْ بُنَيَّ، لا تُصَاحِبْ إِلاَّ عَالِيَ الهِمَّةِ؛ لأَنَّ عَالِيَ الهِمَّةِ يَسْتَخِفُّ بِالمَرْتَبَةِ السُّفْلَىٰ - أَوِ المَرْتَبَةِ الوُسْطَىٰ - مِنْ مَعَالِي الأُمُورِ؛ فَلا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ، وَلا يَقَرُّ لَهُ قَرَارٌ إِلاَّ حِينَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي أَسْمَىٰ مَنْزِلَةٍ، وَأَقْصَىٰ غَايَةٍ(١).

وَمِنْ دُرَرِ العَلاَّمَةِ ابْنِ القَيِّمِ قَوْلُه:

«مَنْ عَلَتْ هِمَّتُهُ، وَخَشَعَتْ نَفْسُهُ اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، وَمَنْ دَنَتْ هِمَّتُهُ، وَطَغَتْ نَفْسُهُ، اتَّصَفَ بِكُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ»(٢).

وَلا يَرْضَىٰ لِصَاحِبِهِ إِلاَّ مَا يَرْتَضِيهِ لِنَفْسِهِ، فَلا يَزَالُ

(١) انظر «رَسَائِلُ الإِصْلاحِ» (٢/ ٨٦ - ٨٨).
(٢) انظر «الفَوَائِدُ» (ص ٢١١).

يَحْمِيهِ بِسِيَاطِ المَلامِ وَالتَّأْنِيبِ ، حَتَّىٰ يَطِيرَ طَيَرَانَهُ، فَلا يَزَالُ يَحْدُو بِهِ.

كُنْ نَاسِكًا تَبَتُّلاً
أَوْ رَائِسًا تَبَجُّلا
وَعُدْ عَنْ مُحَمَّقٍ
قَصَّرَ عَنْ أَنْ يَنْبُلا
يَصُدُّهُ قُعُودُهُ
وَعَجْزُهُ عَنِ الْعُلاَ (١)

(١) «ديوان أسلاك الجواهر» (ص٣٠٢) للشَّوْكانيِّ.

obeikandl.com